عن الجزائر وحركة فرحات مهني وشطط البليغ

عدلي صادق
كاتب وسياسي فلسطيني

ربما تترك هذه السطور، للوهلة الأولى، انطباعا بأن كاتبها الذي يركز على أحداث المشرق العربي؛ قد انتقل إلى بعيد، كي يسلط الضوء على أحداث متفرقة، تندرج في خانة الحدث الجزائري، وقليله داخل ذلك البلد الوازن، والمناصر تاريخيا للقضايا العربية والأفريقية، وكل قضايا التحرر. لكن الأمر ليس مسألة ابتعاد، حتى عندما يتعلق بما يُسمى حركة استقلال القبائل أو تقرير مصيرهم في الجزائر، وهي ما يرمز إليها بجمع أوائل الحروف: حركة "مالك".

لا بد من الاعتراف بأن تركيز إعلام قطر، بلغة سلبية، على الحدث الجزائري الراهن؛ كان لافتا ومستفزا ويحث على كتابة هذه السطور من خلفية استغراب تقصد بلد يريد أن يتماسك ويستعيد دوره. وللأسف، يستغل الإعلام القطري، الحراك الشعبي للاستمرار في هذه الوجهة، ظنا منه أنه يرفع شأن الطيف الحزبي الإسلامي فيها. وإن كان التأويل، سيأخذنا إلى التذكير بمفارقة في هذه المسألة، يصح القول إن تأجج امتعاض القبائل الأمازيغية الجزائرية، بعد استرضائها في العام 2002 بقرار مساواة اللغة الأمازيغية باللغة العربية الرسمية؛ كان بسبب الأعمال العنيفة التي ارتكبها الإسلاميون في الجزائر، ضد رموز فنية وثقافية جزائرية أمازيغية، ما جعل شريحة من النخب من هذا المكون العرقي، تسجل ردود أفعال مناوئة للعرب جميعا، جزائريين وغير جزائريين، حتى بلغ الأمر بالعازف الموسيقي والمغني الاحتجاجي فرحات مهني، أن يقول في إسرائيل عندما زارها في العام 2012 إنه يتضامن بقوة مع الدولة العبرية، ويتحدث عنها وكأنها مهددة ومستضعفة - بينما هي قوة إقليمية ضاربة - ويقارن وضعها بمنطقة القبائل الأمازيغية في الجزائر، معللا ذلك بكون "البلدين" - حسب تعبيره - إسرائيل والأمازيغ "محاطين ببيئة عربية معادية، ويشتركان في المسار نفسه مع فارق وحيد، وهو أن إسرائيل موجودة بالفعل!".

لم يكن أحد ينتظر من مهني كلاما بأي قدر من المنطق السوي، أو أن يتلو على الناس صفحات من تاريخ الأمازيغ الشجعان الذين كان لهم الفضل في حفظ اللغة العربية طوال 132 سنة من الاحتلال الفرنسي للجزائر. فقد كان للقبائل الأمازيغية فضلها في اعتماد لغة القرآن في كتاتيبها ومساجدها في داخل المناطق الجبلية، بعد أن آلت الأمور إلى الثقافة الفرنسية في مناطق الساحل. وربما لا يعرف المغني، كمحض عازف ومنشد احتجاجي، لا اهتمام ولا علاقة له بالتاريخ؛ أن حُماة اللغة العربية العظام، كانوا من الأمازيغ، بل كانوا من القبائل الكبرى، وأن عبدالحميد بن باديس، الذي يُعد من رجال الإصلاح في تاريخ العالم العربي، كان أمازيغيا، وهو مؤسس "جمعية العلماء المسلمين" وهو القائل في مطلع قصيدته الشهيرة التي يحسم فيها هوية الجزائر:

شَعبُ الجزائرِ مُسْلِمٌ
وإلى العُروبةِ يَنتَسِبْ
مَن قال حادَ عَن أَصلِه
أَو قَالَ مَاتَ فَقَد كَذَبَ

كذلك لا يعرف فرحات مهني، على الأرجح، أن شاعر العربية مُفدي زكريا، الذي درس في "الزيتونة" في تونس، أمازيغي من إثنية المزابيين الجزائريين الإباضيين، وهو مؤلف القَسَم الشعري الذي اعتمدته الجزائر المستقلة نشيدا وطنيا. وبالتأكيد هو لا يعرف أن حسين آية أحمد (1926 - 2015) الأمازيغي بامتياز، وأحد القادة الذين فجروا ثورة نوفمبر 1954 ومؤسس ورئيس "جبهة القوى الاشتراكية" في الجزائر بعدئذٍ؛ كان على قناعة بأن جذر الفلسطينيين عربي أمازيغي، وكان يقول ذلك لياسر عرفات كلما التقاه. وربما يكون أهم الأمثلة، هو تاريخ "الكاهنة" الرمز الأمازيغي الأول، التي احتضنت فكرة إدخال اللغة العربية وتعليمها، وبدأت بابنيها.

على الرغم من ذلك كله، فإن المشكلة ليست في الأعراق والطوائف والشعوب ولغاتها، وإنما المشكلة في الدسائس الاستعمارية وفي عجز أنظمة الحكم عن استيعاب شعوبها أو فهم معنى التعددية في الشعوب. فالأنظمة لا تزال تتهجى بصعوبة فكرة المواطنة المتساوية.

يصح أن يُفهم من المنحى الذي اختاره فرحات مهني لنفسه؛ أنه قد تعرض للسجن ثلاث عشرة مرة، وتعرض أيضا للتعذيب كما يقول، وأن ضحايا أحبابه ممن استهدفهم العنف الإسلاموي، كانوا من فناني الغناء والموسيقى الذين نذروا أنفسهم للتعبير عن طموحات القبائل الأمازيغية. فللتعسف أحيانا ردود أفعال تنقلب على الوطن نفسه، وقد حدث ذلك في الكثير من البلدان. بالمقابل، هناك من زادهم التعسف إحساسا بالوطنية العالية، واستطاعوا بثقافاتهم الفصل بين فعل النظام والشعب، فتسامحوا مع الأول أو تجاوزوا عن الأذى أو اختزنوا مراراتهم في قلوبهم مراعاة لأوضاع أوطانهم.

فإن كانت تجربة فرحات مهني الشخصية، قد مرت بآلام، فليس الجواب الصحيح هو محاولة اقتطاع جزء من الوطن للقبائل، وتأسيس ثقافة شعبية تعزز هذه المحاولة. صحيح أن الآلام الشخصية العميقة، لا يستطيع التجاوز لها إلا ذو الثقافة العميقة والضمير الحي الذي لم تدمره الخطوب. أما أمثال فرحات مهني، فإن ثقافته المحدودة، تذهب به إلى ما هو أسوأ من أخطاء النظام الذي يناصبه العداء، وتتساوى مع خطايا جماعات العنف الإسلاموي التي يمقتها المغني، مثلما تمقتها شعوب العرب والمسلمين!

في العام 2004 اغتال متطرفون ابنه الأكبر مزيان فرحات (19 عاما). بل هو نفسه استُهدف في محاولة اغتيال وقُتل أحد أحبابه في العام 1998 وهو مغني الراي الشاب حسني بالرصاص في وهران، كما قُتل بأيدي متطرفين إسلامويين، مطرب الاحتجاج الأمازيغي معتوب لونيس، الذي كانت الأوساط الشعبية الأمازيغية تلقبه بـ"أيقونة القبائل". لكن الرجل الذي ذهبت به أوهامه إلى تنصيب نفسه رئيسا لحكومة ما يسميه "الدولة الأمازيغية" في المنفى، اختط لنفسه منهجا سياسيا منافيا حتى للمزاج الأوروبي الذي يعيش في كنفه. فحركته التي تأسست في فرنسا، لم تستطع قراءة اتجاهات الرأي العام الأوروبي فما بالنا بالرأي العام الجزائري والعربي، لذا كان منذ أيام غزو العراق، مؤيدا بحماسة لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، أثناء ولاية بوش الابن. ويرى الكثير من المراقبين ومنهم دينيس ماكوين، محرر فصلية "ميدل إيست" الأميركية نفسها (عدد فصل الربيع 2010) أنه من الخطأ الجسيم بالنسبة إلى فرحات مهني أن يؤيد سياسة الولايات المتحدة، بينما مسرح عمله ووجهة طموحاته، هو الوسط الشعبي المناهض للسياسة الأميركية. فلا يمكن، والحال هذه، أن تتحقق طموحات مهني وحركته، وهي النجاح في الخطوة الأولى، نحو "دولة القبائل الأمازيغية". فالمسألة بالنسبة إلى الغالبية العظمى من الجزائريين، مسألة تتعلق بمصير الوطن الموحد الخالي من أي شكل من النزاع الأهلي، لأن بديل هذا الوطن، هو التفكك والنزاع المفتوح، لاسيما وأن الانتشار الأمازيغي واسع في جغرافيا بلدان المغرب العربي، ويمتد من ليبيا إلى المملكة المغربية.

نعود إلى التقصّد اللافت في الإعلام القطري ضد سياسة النظام الجزائري، بذريعة الحراك الشبابي المطلبي فيها. ربما لا يزال هذا الإعلام يتوهم أن قوى الإسلام السياسي، يمكن أن تحكم في أي بلد صغير أو شاسع. إن هذا أمر شبه مستحيل، وإن تحقق فسيفتح نزاعات أهلية لا تنتهي إلا بزواله، لأن منهجية هذه القوى، لن تستوعب التعدد الثقافي والعرقي والجهوي، وليس لديها ثقافة دولة، ولا برامج عمل سياسي تنبثق عن أيديولوجيتها. بل إن نسختها الفلسطينية لم تستوعب غزة، وباتت تفتش عن طرف فلسطيني آخر يعينها على حمل العبء الناشئ عن طبائع الحكم الحزبي فيها.

الآلام الشخصية العميقة لا يستطيع تجاوزها إلا ذو الثقافة العميقة والضمير الحي، أما أمثال مهني فإن ثقافته المحدودة تذهب به إلى ما هو أسوأ من أخطاء النظام الذي يناصبه العداء

ولعل المثال الجزائري الأسطع، على ما نقول، هو ما حدث في الجزائر نفسها. فقبل الانتخابات التشريعية التي أجريت في ديسمبر 1991 سُمعت في الأرجاء شعارات تؤكد على أن "الجبهة الإسلامية للإنقاذ" في حال فوزها وانفرادها بالحكم، لن تسمح بالتداول على السلطة، ورفعت لافتات في تظاهراتها تهاجم الديمقراطية باعتبارها مفهوما غربيا صليبيا، وقال خطباؤها علنا إن تفويضها سيكون من الله. ولم يستطع النظام تقدير حجم الفوز الذي ستحققه، كرد فعل شعبي على الفساد وعطالة الشباب ووقف مسار التنمية. كان التقدير في حال فوزها، في أسوأ تقديرات النظام، أن تحصل على أغلبية تساعدها على تشكيل الحكومة لكي يجربها الشعب، ويجري توريطها. لكن الزلزال جاء عندما فازت "الجبهة" بعدد يتجاوز الثلثين، يساعدها على تغيير الدستور. ولما حدث ذلك فعلا، اضطر الجيش لأخذ زمام المبادرة، فتباكى الإسلاميون على ما يسمونه "الانقلاب" بينما لو لم يقع ذلك الانقلاب لأضحت الجزائر ست دول، ولكان مثل فرحات مهني، رئيسا لإحداها، يخوض نزاعا مضنيا ومريرا مع "جيرانه" الصغريات، لدواع تتعلق بترسيم الحدود وبمطالبات لا نهاية لها.

المناكفة السعودية والمشروعان التركي والإيراني

علي الصراف
كاتب عراقي

أرادت الرياض أن تناكف أنقرة، فعقدت اتفاقا عسكريا مع اليونان، يتضمن استئجار بطارية باتريوت، بدلا من تلك التي قامت الولايات المتحدة بسحبها، كما يتضمن إجراء مناورات مشتركة.

تقلق الرياض، ومن حقها ذلك، من أن أنقرة تقيم قاعدة عسكرية في قطر، تشكل شرخا في جدار الدفاع الخليجي المشترك. ولو أنها اندفعت لتقيم قاعدة عسكرية في اليونان، لكان بوسع أنقرة أن تقلق أيضا. هكذا تتوازن الأمور. ولكن الميزان بقي مختلا.

يستطيع المرء أن يراهن على أن الرئيس التركي رجب طيب أردوغان يقول في نفسه، لو أنه كان يملك نصف موارد وإمكانيات السعودية لعاد جنوده يقفون على أسوار فيينا. إلا أن حظه العاثر جعله مكبلا باقتصاد يكافح جبلا من الديون، ويعجز عن توفير الاحتياطات التي يمكنها أن تغطي طموحاته.

مع ذلك، فإن اقتصاد تركيا، حتى وإن كان يقف على شفير الهاوية، بسبب التوسع من دون غطاء، فإنه كان تجربة تستحق التأمل. الشيء الأهم، هو أنه اقترن بمشروع جيوسياسي ضخم.

لا أحد يمكنه أن ينكر الآن، أن تركيا قوة إقليمية نافذة. هذه القوة تلعب أدوارا وتفرض مساومات في سوريا والعراق وليبيا، وتخوض صراعا مع اليونان وقبرص وتريد أن توسع منطقتها الاقتصادية في المتوسط، وشرعت بالفعل في أعمال التنقيب عن النفط والغاز هناك، وظلت تناطح الاتحاد الأوروبي حول حزمة من المسائل. تلعب مع روسيا بمقدار ما تلعب مع الولايات المتحدة. ولو أنها نجحت بأن تحصل على إصبع نفوذ زيادة من وراء هذا كله، فإنه سيظل مكسبا مقابل ما أثارته من ضجيج وبعض جرأة.

السعودية تبدو في وضع المستكين بالمقارنة مع الطموحات الأردوغانية ومشاريعه التوسعية.

لا يهم إن كانت وجهة نظرنا عن هذه المشاريع سلبية للغاية، ونحسب أننا جديرون بأن نقف في وجهها، لأسبابنا الخاصة، إلا أنها من وجهة نظر تركيا جديرة بالاعتبار وجديرة بأن يُدافع عنها.

مشكلة السعودية التاريخية هي تلك الاستكانة نفسها. بعبارة أخرى، إنها قوة اقتصادية كبيرة، ولكنها من دون مشروع.

هذا ما يجعلها تبدو وكأنها ضحية لمشاريع الآخرين، وفي مقدمتهم الولايات المتحدة نفسها، التي تنظر إلى السعودية على أنها خزانة مال ونفط.

فقط عندما بدأت السعودية الحرب في اليمن لاستعادة الشرعية، تنفس الراغبون برؤية السعودية كقوة فاعلة الصعداء. قالوا: ها أن المعادلات الاستراتيجية في المنطقة يمكن أن تتغير إلى الأبد.

ولقد نجحت السعودية في قيادة التحالف العربي، لكي ترسي نتيجةً أين كنا لو أنها لم تأت بتلك الشجاعة التي أظهرها ولي العهد الأمير محمد بن سلمان في اقتحام المغامرة. وذلك ابتداءً من إفلات الرئيس عبدربه منصور هادي من الأسر، إلى تحرير جنوب اليمن وأقاليم واسعة من شماله أيضا حتى جاز لقوات الشرعية في بعض المراحل من أن تقف على أسوار صنعاء.

لقد بدا ذلك وكأنه أول المشروع. إلا أنه توقف عند هذا الحد. نجاح، ولكنه ظل ناقصا.

ماذا تملك إيران لكي تشكل تهديدا للسعودية؟ إذا ذهبت بالمقارنات إلى نهاياتها، سوف تكتشف الجواب: لا شيء حقا.

لماذا إذن تبدو السعودية أمام هذا الخصم الإقليمي الشرس، قوة مستكينة وكل ما تأمله هو النجاة بنفسها؟

لقد تجرأت إيران بعدوانيتها المألوفة أن تقصف بعض منشآت أرامكو، وما تزال توجه لها التهديدات كل يوم. فبماذا استقبلت الرياض هذا التهديد؟ لا شيء حقا.

صناعة الصواريخ الباليستية ليست مكلفة. والخبرات المطلوبة لها متاحة، وما من شيء في تقنياتها بات صعبا. أفهل تهدد إيران السعودية بما لديها من صواريخ؟ أفهل تجعلنا نضطر إلى أن نقع تحت رحمة المزاج الأميركي المتقلب حيال إيران؟ أفهل من المعقول بالنسبة لقوة اقتصادية ضخمة أن ترهن دفاعها عن نفسها بباتريوت الولايات المتحدة؟ متى نتعلم أن نقول لمن يتخلى عنا: طز؟

يمكن للسعودية بالقليل من الجهد والجرأة أن توفر لنفسها أكبر قوة صاروخية في المنطقة، وربما في العالم. إنما لتقول لإيران إن كل صاروخ يقع على أرضنا، فإننا سنقابله بعشرة. لا بمئة.

وسنفعل ذلك من دون تردد، ولا اتصالات مسبقة.

يمكن لمنطق المستكين، أن يتحوط أيضا، بجعل مجلس الأمن الدولي شريكا في النظر إلى النزعات العدوانية الإيرانية. ولكن، ليس من أجل تسجيل المواقف الخجولة، وإنما من أجل الضرب بيد من حديد على المعتدي. وبجعله يدفع ثمن عدوانيته بأن يسدد تعويضات عن الخسائر.

السعودية تملك شعبا قويا يقف خلف قيادته ومؤسسة عسكرية صارت تمتلك من الخبرات ما يكفي وطاقات اقتصادية هائلة يمكنها أن تشكل رافعة متينة لكي تتحول إلى قوة عسكرية مستقلة

يتوفر للسعودية حاجز دفاعي ضخم، هو الخليج العربي نفسه، ما يوفر مقدارا من الطمأنينة من أن حرب الصواريخ والطائرات لن تزداد سوءا قبل أن تجثو إيران على ركبتيها.

العراقيون طحنوا إيران طحنا بقوتهم الصاروخية. فإذا كان هناك من فضل كبير حققته مؤسسة الصناعات العسكرية العراقية، هي أنها حوّلت كل برميل صفيح وجدته في أسواق الخردة إلى صاروخ، وظلت تمطر به الحشود الإيرانية في الفاو وعلى امتداد الحدود، حتى تجرع الخميني كأس السم.

ما تهددنا إيران به، هو ذاته نقطة ضعفها الأهم.

ولكن إيران تمتلك الجرأة لأن لديها مشروعا، بينما لا تملك السعودية مشروعا قوميا أو إقليميا خاصا بها.

الاستكانة ليست مشروعا. وهي لا توفر دفاعا حقيقيا عن النفس.

في لحظة، عابرة من تاريخ المنطقة، بدت السعودية وكأنها صارت تمتلك الجرأة. وحققت ما حققت من تغيير في اليمن.

كيفما نظرت إلى المعادلة في هذا البلد، فإن هناك شرعية تفرض نفسها كقوة موازية على الأقل.

لقد حدث ذلك بفضل الجرأة.

إلا أن الحرب تواصلت، وتحولت حرب استنزاف، لأن الجرأة تراجعت. ولأن العدو الإيراني ظل هو الذي يقدم وقاحته كبديل.

الولايات المتحدة حليف؟ حقيقي؟ الله يبارك. ولكن ليس بالاستكانة. ليس بالوقوف موقف العاجز أمام النزاعات العدوانية الإيرانية والتركية. وبالدرجة الأولى، ليس من دون مشروع.

هذا المشروع يتعين أن يكون جريئا، لا بل وقحا كوقاحة مشاريع الآخرين. وتملك السعودية شعبا قويا يقف خلف قيادته ويدين لها بالولاء، ومؤسسة عسكرية صارت تمتلك من الخبرات ما يكفي، وطاقات اقتصادية هائلة يمكنها أن تشكل رافعة متينة لكي تتحول المملكة إلى قوة عسكرية مستقلة، تتبعها الولايات المتحدة فتلبي احتياجاتها، لا أن تتبع هي الولايات المتحدة فتكون سوقا فحسب، أو تقع تحت وطأة الغرام السري الدائم بين إيران والولايات المتحدة.

تملك السعودية أن تقول لكل نزعة عدوانية: إذا تعرضنا لأي اعتداء فإن العاقبة لن تكون وخيمة فحسب، بل ستكون كارثة على المعتدي، وليجرّب من يريد أن يجرب.

وفي مقابل كل صاروخ يشهد مجلس الأمن الدولي على عدوانيته، ترد السعودية بألف صاروخ في ضربة واحدة. ثم تليها ألف أخرى، ثم أخرى. حتى يفهم "الولي الفقيه" كم أنه كان سفيها بالاعتداء على بلد آمن.

ساعتها لن تجرؤ إيران على أن تمس قطعة حديد من منشآت أرامكو، ولا أن تُغلق مضيق هرمز، ولا أن تزوّد الحوثي بالصواريخ.

وليست القوة هي التي تؤسس المشروع. لا تخطئ في هذا. المشروع هو ما يتعيّن أن يؤسس القوة، لكي يوجهها لخدمته.

هذا هو الشيء الناقص، مع الأسف.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk